ادب عربی، سال ۸، شمارهٔ ۲
پاییز و زمستان ۱۳۹۵

ربُّ السيف والقلم فـــي ميزان النقـــد

سیدابوالفضل سجادي*
الأستاذ المشارک في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة أراك
محمود شهبازي
الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة أراك

(من ص ۱۳۳ الی ۱۴۹)
تاریخ الاستلام: ۱۳۹۲/۶/۱۳، تاریخ القبول: ۱۳۹۵/۹/۳۰

الـــملخّص

يعدّ محمود سامي البارودي شاعراً وسياسياً مصرياً من شعراء القرن التاسع عشر، وقد كان له أكبر تأثير في إحياء الشعر العربي المعاصر وتجديده، حيث أوصله إلى ذروه العذب، وأتى بالمضامين الجديدة في القوالب القديمة التي كانت من خصائص الشعر الكلاسيكي. رجع البارودي إلى العصور الذهبية للأدب العربي رجوعاً واعياً، وبتقليد القدماء ومعارضتهم حال دون السقوط الحتمي للشعر العربي . إن للبارودي تجديداً ملموساً في الشعر إضافة إلى التقليد، حيث كان مبدعا مبتكرا في موضوعات مثل: الوصف، والشعر السياسي، والحنين، والتجربة الذاتية في الحرب، والهجاء الاجتماعي، والدعوة إلى العلم؛ وهو يعتبر رائد الشعر العربي الجديد فى عصر النهضة. وأما الّذى نحن بصدده فى هذه المقالة فهو إلقاء الضوء على مواضع التقليد والتجديد في شعر البارودي ودوره في الأدب العربي الجديد.

الكلمات الدليلية: الشعر العربي المعاصر، محمود السامي البارودي، النقد، التقليد، التجديد.

*. البريد الالكتروني للكاتب المسؤول: A-sajady@araku.ac.ir

١. المقدمة

استولى الضعف والركاكة على الشعر العربي مع أفول نجم الشعر في العصر العباسي الرابع، فانتهى العصر الذهبي للأدب العربي، وبدأ عصر الانحطاط، وساءت أوضاع الأدب ولاسيما الشعر، ودخل الشعرَ كثيرٌ من الأساليب الضعيفة والمعاني السقيمة ، وأقبل الشعراء على الأغراض الفارغة والتافهة، الأمر الذى أدَّى إلى ابتعاد الشعر عن رسالته الحقيقية أى الإصلاح والإيقاظ، وخلا من عناصر العاطفة الصادقة والإحساس والتخيل التي هي من العناصر الضرورية للشعر.

وفي بداية عصر النهضة كان الوضع على سابقه، وسار شعراء هذا العصر وفق أسلوب شعراء عصر الانحطاط، وسادت الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية والأساليب الضعيفة على الشعر العربي. و لم يكن الاختلاف بين العصرين اختلافاً كبيراً، لذلك احتاج الشعر والأدب إلى شاعر فذٍّ حتى ينقذه من هذه العوائق، وها هو سامي البارودي الذي هدى الشعر إلى طريقه الصحيح من جديد.

إنَّ مؤرّخي الأدب يصفون البارودي تارة برائد الشعر الجديد ويسمونه تارة أخرى بشاعر مقلِّد، ما قام بشئ إلا بتقليد القدماء؛ فأدّى هذا التقابل إلى إثارة هذه الأسئلة: لماذا أقبل الشاعر إلى التقليد؟ هل كان تقليده غير هادف، أو كان واعياً؟ هل أتى الشاعر بتجديد في الشعر العربي إضافة إلى تقليد الشعراء الفحول ولاسيما العباسيين ؟ هناك بعض المقالات بالنسبة إلى البارودي، وأما في مقالتنا هذه فنحاول أن ننقد الشاعر وشعره، ونخلص إلى النتيجة التى لعلها أقرب إلى الحقيقة.

٢. مكانة البارودي ومنزلته

«مصر لم تُعرف في العصور الإسلامية على اختلافها بتفوقها في الشعر وإنما كان التفوق في الشعر من حظ بلاد عربية أخرى... فقد تفوق الحجاز ونجد في الجاهلية والإسلام، وتفوق العراق في العصر الإسلامي تفوقاً ملحوظاً، وتفوقت الشام والعراق في العصر العباسي تفوقاً رائعاً، وتفوق الأندلس كذلك تفوقاً رائعاً حقاً... ولكن مصر ظلّت متواضعة في الشعر،... ولأول مرة في تاريخ الأدب العربي ظهر شاعر مصري مبرز متفوق لا يكاد يجاريه شاعر آخر في قطر من الأقطار العربية في أواخر القرن الماضي، وهذا هو الشاعر البارودي، فهو من هذه الجهة قد أتاح لمصر أن تأخذ مكانة ممتازة في الشعر العربي» (حسين، ١٩٧٨: ٨١ و ١٩٨١: ٤٤٨).

«و أيضاً فإنَّ محمود سامي البارودي كان قد استطاع أن يردَّ إلى الشعر روح الحياة وأن يزرع في النفوس أنَّ ما يُرَى عند بعض المعاصرين من قصور أو تحرُّر من الأغلال العثمانية وعن تصوير مشاعرهم الشخصية والقومية لايرجع إلى طبيعته وإنما يرجع إلى طبيعتهم» (ضيف، ۱۹۶۱: ۴۵).

> «ومن هذا المنظار تبدو أهمية شاعر كمحمود سامي البارودي... فقد عارض لغة زمانه بالعودة إلى العصر العباسي وما تميز به من متانة وفخامة، فأعاد إنتاج ما حملته تلك اللغة من قيم؛ هكذا شكل شعره بين النصوص القديمة والمحدثة، وفي هذا يكمن دوره الإيجابي بالنسبة لعصره. غير أن شعر البارودي ظلَّ في ملامحه الأساسية اتباعياً» (خالدة، ۱۹۷۹: ۲۰).

كان البارودي رائد الشعر الجديد ومعلم الشعراء، وهو الذي أرجع مكانة الشعر إليه في عصر كاد الشعر والشعراء أن يفتقدوا كلَّ القيم التي عرفوها في القديم والجديد.

> «إنه مثَّل عصره أتم التمثيل، وكان صدى لحوادث بيئته، فكان قدوة لمن جاء على إثره في التجديد، أضف إلى ذلك أنه علَّمهم كيف يتجهون إلى الأدب العربي في أزهى عصوره، ويغترفون من ذخائره، بحيث لاتفنى شخصياتهم، فيقوى أسلوبهم، وتشق ديباجتهم، ويبتعدون عن الحلى المتكلفة؛ وبذلك سار الشعراء من بعده إلى الأمام، ولم يرجعوا أبداً إلى الضعف والركاكة. وممن تتلمذ على البارودي واقتفى أثره عدد كبير من الشعراء العربية كشوقي وحافظ والرافعي وصبري» (الدسوقي،۱۹۷۵: ۲۹۹/۱).

إن العَلم الذي رفعه البارودي أظلَّ على كلٍّ فيما بعد، وإن كانت مدارسهم تختلف بين المحافظة والتجديد؛ لذلك يمكن القول: إنه إن لم يكن البارودي، لم تبدأ الأمة العربية حياتها الشعرية المعاصرة الغنية. استطاع البارودي أن يرجع ازدهار الشعر إليه، بحيث لم يكن طراوته أقل من عصوره.

إن البارودي اطَّلع على شعر الشعراء الكبار في العصر العباسي في المرحلة الأولى، وكانت هذه خطوة صحيحة ومهمة، واستفاد من المصادر الأصلية للشعر العربي. وفي المرحله الثانية وهي مرحلة استقلال شخصيته أظهر ما يجري في عصره ورسم أحاسيسه ومشاهداته في الشعر، وهذا الأمر هو الباعث على اعتباره رائداً للشعر الجديد.

۳. تقليد البارودي في الشعر

إنَّ إعجاب البارودي بالشعراء القدامى ساقه إلى تقليدهم في قصائدهم المشهورة؛ فلذلك استطاع أن يسيطر على لغتهم الخالصة كثيراً. وكان توفيقه في تقليدهم جديراً بالملاحظة،

والشاهد على ذلك هو الشعر الذي قاله في معارضة قصيدة البردة للبوصيري على نفس الوزن والقافية في مدح الرسول(ص) (میرسلیم ۱۳۷۵: ۳۵).

كان البارودي يقلِّد الشعراء الفحول القدامى في الأغراض الشعرية، خاصة الشعراء العباسيين. وإضافة على الأغراض يقلِّدهم في الأسلوب والمعنى، وكأنه نسي أنه في مصر، وبعيد عن نجد وروابيها، وهو يقول:

يا سعدُ قُل لـــــي فأنتَ أدرَى　　　متـــى رِعَانُ[1] العقيـــق تبـــدُو
أشتـــاقُ نجـــــداً و ساكنيـــه　　　و أين منِّـــــي الغـــداةَ نجـــدُ

(البارودي، ۱۹۹۵: ۱۶۱)

و يقول في مكان آخر:

أيـــــن ليالينا بـــوادي الغضا ؟　　　ذلك عهـــدٌ لَيتَه ما انقضى
كنتُ بـــه مِـــن عيشتـــي راضياً　　　حتى إذا ولَّتْ عَـــدِمتُ الرضا

(المصدر نفسه: ۲۹۷)

أقبل الشاعر على التشابيه القديمة في الغزل والنسيب، ويتحَّدث عن الغزال والقمر في السماء و...، ويشبه حبيبته بالمهاة، ونظرتها بالباترة، وقدَّها بالغصن ويقول:

إذا نَظَرَتْ أو أقبَلَتْ أو تَهَلَّلتْ　　　فويلُ مهاة الرملِ والغصنِ والبدر

(المصدر نفسه: ۱۹۷)

فالشاعر حفظ الأشعار الجميلة للعصر العباسي، وتعلَّم الأسرار والفصاحة للغة العربية، وأثرَّت مطالعاته في الأشعار القديمة على بنية قصائده وموضوعاته، وظهرت عناصر الشعر القديم في المفردات والأشكال والموسيقى والمعاني والأغراض وأساليبه الشعرية.

امتدَّت ثقافته الشعرية من العصر الجاهلي إلى زمنه، وتوجد في قصائده الألفاظ البدوية؛ فلذلك نرى ألفاظ الشعر الجاهلي بكثرة في القصيدة التي قام بمعارضة معلقة عنترة، وأثرَّت قراءاته المستمرة في الشعر القديم على صوره الشعرية، بحيث يظن القارئ أنه أمام شاعر جاهلي مثل قصيدته اللامية التي يقول فيها:

ألا حَيِّ مِن«أسماءَ» رسم المنازل　　　و إن هي لم ترجع بياناً لسائل
خلاءٌ[2] تَعَفَّتهـــا الروامسُ[3] والتَقَت　　　عليها أهاضيبُ الغيـــــومِ الحوافلِ

(المصدر نفسه: ۴۲۶)

في شعر البارودي تبرز الخصائص الرائعة لموسيقى الشعر العربي وأوزانه وقوافيه، وفي صوته رنين الموسيقى الشعرية للمتنبي والبحتري وأبي نواس وأبي فراس الحمداني والشريف الرضي.

وكان شاعرنا يحاول أيضاً أن يتبع أبا العلاء المعري في الموسيقى الشعرية في لزومياته، فنرى كثيراً من هذا النوع في شعره، نحو الشعر التالی الذي أنشده بعد الثورة العرابية:

يا ناصرَ الحــقِّ علــى الباطـــــلِ ... خُذ لي بحقّي مــن يــدي ماطلي

جارَ علــى ضعفــي بسلطانــــه ... و ما رَثَــى للمــدمع الهاطــلِ

مِـــن غيـــر ما ذنب ســــوى منطقٍ ... ذي رونق كالصَّارم القاطــلِ[۴]

(المصدر نفسه: ۴۴۱)

أثرت معاني الأشعار القديمة على شعر البارودي كثيراً، على سبيل المثال تحدَّث السموأل عن ضرورة حفظ المرء لعرضه نقياً مصوناً:

إذا المرءُ لم يدنس من اللؤم عرضُه ... فكلُّ رداءٍ يــرتديـــــه جميلُ

(سموأل، ۱۹۹۶: ۶۶)

يقول البارودي:

فما الفقرُ إن لم يدنس العرضُ فاضحٌ ... و لا المالُ إن لم يشرفِ المرءُ ساترُ

(البارودي، ۱۹۹۵م:۲۴۰)

و إذا النابغة الذبياني صوَّر هلعه من غضب النعمان عليه تصويراً حسياً، قائلا:

فبتُّ كأنِّــي ساوَرَتنــي ضئيلــةٌ ... مِن الرُّقشِ في أنيابها السُّم الناقعُ

(النابغة الذبياني،۱۹۸۰: ۸۰)

يقول البارودي:

فبتُّ كأنــي بيــن أنياب حيَّـــــةٍ ... مِن الرُّقطِ[۵] أو في بُرثُنَي أسدٍ وردِ

(البارودي، ۱۹۹۵: ۱۵۷)

ثم نراه يقول في مجال الخمرة والفخر الذاتي:

فلمَّا رأيتُ الليلَ ولَّى وأقبلـــَتْ ... طلائعُ مِـــن خيلِ الصباحِ تغيرُ

ذهبتُ أجـــرُّ الـــذيلَ تيهاً[۶] وإنَّما ... يَتيهُ الفتـــى إن عَفَّ و هوَ قديرُ

(المصدر نفسه: ۲۰۵)

و هو يذكِّرنا بقول الأخطل:

إذا ما نَديمــــي علَّنــي ثُّم علَّني ثَلاثَ زجــاجاتٍ لَهُــنَّ هــديــرُ
خـــرجتُ أجرُّ الذيل زهواً كأنني عليـــــك أميـــرالمؤمنين أميـــــر

(البستاني، ١٩٩٧: ٣٢٢/١)

قال بشار بن برد:

إنَّ فـــي بُــــــرديَ جسماً ناهـــلاً لـــو تـــوكأتُ عليـــه لانهَـــدم

(بشار، ١٩٨٣: ٢١٢)

فأخذه البارودي، فقال:

لم تــــدعْ منِّــي الصَّبابــــةُ إلا شبحـــاً شفَّـــه السَّقــــام فَدَقَّــا

(البارودي، ١٩٩٥: ٣٦٩)

يقول البارودي في مجال الحكمة:

و ما أحسَبُ الأيـــامَ تَصفُو لعاقلٍ و لكن صفاءُ العيشِ للجاهل الغُمرِ[٧]

(المصدر نفسه: ٢٥٩)

وهذا من قول المتنبي:

ذوالعقلِ يشقى فـــي النعيم بعقله و أخـــو الجهالـــة في الشقاوة ينعمُ

(المتنبي، د.ت: ١٢٤/٢)

يقول البارودي في مجال الحديث عن فضل الكلام والشعر:

فما كلُّ مَـــن حاكَ القصائدَ شاعـــرٌ و لا كُلُّ مَن قالَ النسيبَ مُتَيَّــــــمُ

(البارودي، ١٩٩٥: ٥٣٤)

و هذا يُعيد إلى الأذهان قول المتنبي:

إذا كانَ مـــــدحٌ فالنسيبُ المقدَّمُ أَكلُّ فصيحٍ قــــالَ شعــراً مُتَيَّمُ

(المتنبي، د.ت: ٣٥٥/٢)

ويقول البارودي في الفخر بعبقريته الشعرية:

و ما ضَـــرَّني أنِّـــي تَأخَّرتُ عنهم و فضلـــي بيـــن العالميـــن شهيرُ
فيا ربَّما أخلى مِـــن السَّبقِ أوَّلُ و بَذَّ[٨] **الجيادَ**[٩] **السابقاتِ أخيــــــرُ**

(البارودي، ١٩٩٥: ٢٠٦)

يُعيدُ هذان البيتان إلى الأذهان قولَ أبي العلاء المعري:

و إنّي وإن كنتُ الأخيرَ زمانُــه لَآتٍ بما لــم تستطعــهُ الأوائــلُ

(البستاني، د.ت: ۳/۳۱۰)

كان البارودي يستخدم بعض الأوقات معاني الشعراء الفحول القدامى أو ألفاظهم غير واع، بسبب أنه كان حافظاً شيئاً كثيراً من الشعر؛ فلذاک حذا حذو شعراء مثل: أبي نواس، ومسلم بن وليد، وأبي تمام، والبحتري، والمتنبي، ويذكر هؤلاء الشعراء في أشعاره ويقول:

مضَى «حسن» في حلبة الشعر سابقاً و أدركَ لــم يسبق ولم يألُ «مسلمُ»
و باراهما «الطائي» فاعتــرفت لــه شهودُ المعاني بالّتــي هــي أحــكمُ
و أبدعَ فــي القول «الوليدُ» فشعرُه على ما تــراه العينُ وَشيٌ مُنَمنَمُ
و أدركَ فــي الأمثال «أحمــد» غايةً تَبُــذُّ الخُطَــى ما بعــدها متقــدِّمُ
و سِرتُ على آثارهم و لَــرُبَّما سبقتُ إلــى أشياء واللــــه أعلمُ

(البارودي، ۱۹۹۵: ۴۹۹)

كان أبونواس سابقا على شعراء زمانه في التجديد ، ومسلم بن الوليد في فن البديع، وأبوتمام بمعانيه العميقة، والبحتري بألفاظه الجزلة وعباراته السلسة، والمتنبي بحكمه النافذة. فالبارودى يعترف بأنه عمل على نمط هؤلاء الشعراء، ويقول: إنه لربَّما كان أفضل وأسبق منهم في بعض الخصائص الشعرية.

و السؤال المتبادر إلى الذهن هنا لماذا أقبل الشاعر إلى التقليد في الشعر؟

«و قد وقف على الأطلال والدمن، وأتى بشعر جاهلي الروح والمعنى والوجه والزي، ولايمت إلى عصره وعصر الحضارة بصلة. وهو لم يقله لأنه مقتنع بأن ذلك هو الأسلوب الواجب اتباعه، والنهج الذي عليه أن يسلكه، ولكنه يريد أن يمتحن شاعريته، وهل في استطاعته أن يحاكي القدماء حتى في وقوفهم على الأطلال والدمن؟ وليس أمامه أطلال ودمن تهيج شاعريته، وتثير عبرته فإذا استطاع أن يقول مثلما قالوا فهو شاعر فحل. ولا شك أن هذا النوع من الشعر خال من العاطفة، وفيه كثير من الصنعة والتكلف» (الدسوقي، ۱۹۷۵: ۲۴۱).

«استطاع البارودي بقوة شاعريته القوية أن يمزج سلاسة العبارة واتباع سنن الشعراء العباسيين مثل المتنبي بقدرة بيانه وتجرباته الشخصية، وينشد أشعاراً بعيداً من التصنع والركاكة، الأشعار التي كانت مرآة ونموذجاً لفكرته القوية وشخصيته الفائقة، فهو رقّى

الشعر العربي الذي كان محصوراً على التلاعب بالكلمات والأفكار السخيفة، وأتى بتجربياته الشخصية في أشعاره» (بدوي، ۱۳۶۹: ۲۶).

يقول حنا الفاخوري: لم يكن للبارودي بدٌّ من معارضة الشعر الذي استقامت عليه شاعريته، وتملّت من روعته حافظته وخياله. والواقع أن البارودي نظم في أغراض الشعر القديم، وتحرَّى مجاراة الأقدمين في أساليبهم ومعانيهم، فوقف على الأطلال، وذكر نجداً ورباها وحيوانها ...بيد أنه إذا قلّد الأقدمين فعن مقدرة شعرية ولغاية مفيدة، فجاء تقليده أنفع ما في شعره للأدب الحديث، لأنه ردَّ إلى المعاصرين يقين القدرة على الاحتذاء للشعراء العباسيين والمخضرمين والجاهليين في ميدان اللغة والأساليب، وكانوا في حاجة إلى هذه الثقة بأنفسهم ولغتهم بعد ردة العصور التركية... والحق أن البارودي قد ارتفعت به همته إلى مجاراة كبار الشعراء القدماء ومحاكاة جزالتهم ونصاعة لغتهم محاكاة مطبوعة ليس فيها من التقليد سوى الرغبة، وكأن البارودي هنا ممثل قدير لبس دور الشاعر البدوي، فوفّاه لغة وشعوراً وزياً وحركة، فخلقه خلقاً جديداً، و جعل له تمثالاً من نفسه وحياته (الفاخوري، ۱۳۷۷: ۹۶۱).

«عندما نتكلم عن تقليد البارودي القدماء فهذا لايعني أنه صار في تقليده تصويراً موافقاً لهم. يقول شوقي ضيف: هو لم يكن مقلد القدماء بالمعنى السيء للتقليد، إنما كل ما هناك أنه يريد أن يردَّ إلى شعرنا جزالته ونصاعته ورصانته، أما بعد ذلك فشخصيته في شعره قوية بارزة، شخصية تستكمل حريتها، وليس هذا فحسب، فإنه يستشعر الحرية القومية، فيتحدَّث عن مطامح أمته السياسية، ويأسى لما تتردى فيه من ضعف وخذلان، ويعرض للأحداث الخطيرة التي مرت بها، ويقارن بين ماضيها وحاضرها، ويصف أمجادها الغابرة» (الخفاجي، ۱۹۸۵: ۱/ ۶۰ و ضيف، ۱۹۶۱: ۱۴۳).

ظهر البارودي في عصر انقطعت علاقة الشعراء بمصادر الشعر القديم، وليس لديهم أمل للتحرر والخروج من الإسارة. وهو بظهوره أرجع الشعر العربي إلى أساليبه الخالصة القديمة، وأبعد عنه الضعف والركاكة، وثبت اللغة العربية الفصحى، وأكّد على أنه تراث قيِّم، يجدر بالشعراء أن يبقوا في ظله الوسيع ويستنيروا به.

لذلك فهو منع السقوط الحتمي للشعر العربي بتقليد القدماء ومعارضتهم وبإنشاد أشعار بعيدة من الضعف والركاكة، و لم يكن عمله هذا عملاً سهلاً للوصول إلى هذا الهدف. يقول طه حسين:

«وهو في الوقت نفسه لم يكن مقلداً بالمعنى الواضح المألوف لكلمة التقليد، كان مقلداً في رصانة الأسلوب وجزالته، وكان مقلداً في القصيدة على نسقها المعروف، كان في هذا كله مقلداً، ولكنه كان ذا شخصية قوية بارزة، فكان شعره يصور نفسه، وكان شعره كذلك يصور وطنه وبيئته، وكان يصور الأحداث الخطيرة السياسية التي خضع لها وطنه في تلك الأوقات» (حسين، ۱۹۷۸: ۸۲).

و يقول الخفاجي:

«نحن لانعتبره مقلداً صرفاً لسببين: أولهما: الإجادة في أغراضه ومطابقتها لواقع الحياة، وثانيهما: أن نفسه لما فيها من استعداد وراثي ولما يحيط بها من أجواء دافعة أشربت أساليب هؤلاء الشعراء حتى صارت طريقة البارودي أشبه بمشاعر الجاهليين المنبعثة من النفس بلاقصد ممجوج وتكلف ممقوت. ومن هنا نقضي بما قضى به المنهج العلمي أن البارودي بعث الشعر الجاهلي من رقدته وإن لم يجدِّد فيه» (الخفاجي، ۱۹۶۵: ۱۸۰/۵).

لذلك لا يمكن أن نعتبر البارودي مقلداً صرفاً في إنشاد القصيدة، وعمله دون أيِّ ابتكار وفي مستوى عمل تقليدي، بل تعدُّ القيمة الفنية لشعره أفضل من الحركة التقليدية عنده نظراً إلى ظروف زمانه.

۴. مضامين البارودي التجديدية في الشعر

«يختلف النقاد حول مجدِّد الشعر في هذا العصر فقال جماعة: إنه البارودي بلامنازع، وقال آخرون: إن الشعر لم ينل حظه من التجديد إلا عند شوقي، على أن للبارودي وشوقي آثاراً تجديدية في الشعر العربي لايمكن إنكارها،... استفاد البارودي من الشعر الجاهلي والعباسي فاطلع عليه وقرأه في تضاعيف كتبه، وقد كان الشعراء في هذا العصر لا يعنون بدراسة مسائله أو الانتهال من بحاره الزاخرة ومنابعه الأولى؛ فجاء البارودي واستطاع بثاقب فكره وثقافته العريضة أن يبعث الشعر القديم من مرقده وأن يخرجه من مكمنه، وبذلك أعاد للشعر سابق صولته، وأهدى إليه عنفوانه وقوته» (الخفاجي، ۱۹۶۵: ۱۷۹/۵).

و يعتقد البارودي أن الشعر هو مرآة الزمان، ويموت إن كان بعيداً عن الحياة والبيئة، لذلك يتضمن شعره قديم اللهجة جديد النزعة. وكان يرسم في الشعر شخصيته في المجالات العسكرية، وآلامه وأحزانه، وآمال شعبه، والعدالة والمساواة، ويقف أمام العادات السيئة.

يكمن تجديد البارودي في الوصف إلا أنه خلافاً للشعراء الذين يتحدثون عن الوصف ضمن قصائدهم يخصِّص قصيدة كاملة بالوصف. تعتبر السياسة من الأغراض التي ظهرت فيها شخصية الشاعر جلية، والتي رسم الشاعر فيها طلبات الناس وأحزانهم وآلامهم والظلم الذي

يعانون منه في حياتهم، وما كان يسوقه في هذا المسير هو روح الحرية عند الشاعر؛ لأنه من دعاة الحرية الذين كانوا يحاولون إنقاذ الناس من القيود وإحقاق حقوقهم الضائعة؛ لذلك هو أول من فتح أمام الشعراء المعاصرين باب الشعر السياسي والوطني، وأظهر الشعراء بعده هذا التحول الكبير في أشعارهم وصاروا ألسنة الناس المتحدثة.

للبارودي قصائد طويلة يعبِّر فيها عن تجاربه في الحياة، وهو من جهة أخرى شاعر الذاتية والوجدان، ولذلک تعدَّدت موضوعاته التجديدية من الحنين إلى الغربة والاغتراب إلى الشكوى من المجتمع إلى تجربته الذاتية في الحرب إلى شعره السياسي إلى الهجاء الجديد والوصف والدعوة إلى العلم وسوى ذلک من موضوعات تدلُّ دلالة قاطعة على الدور الكبير الذي نهض به هذا الشاعر (موسى، ۱۹۹۹: ۱۱۱).

۴-۱. الحنين

المقصود بالحنين هو الأشعار التي أبانت عن حزن الشاعر ولوعته أو اشتياقه إلى شئ أو مكان أو شخص ما.

كانت مصر موطناً لآباء البارودي وأجداده، فأحبَّها حبَّاً جارفاً، فلمَّا كان بعيداً عنها كان يخفُّ إليها بروحه التي تسبقه إلى ربوع الشباب وملتقى الأصدقاء، ولكن حنينه يختلف بين قصيدة وأخرى، فمرة يكون هادئاً، فيه شيء من الأمل الباسم باللقاء القريب، ويكون مرة أخرى عاصفاً يقتلع شجيرات الأمل وورود المستقبل (المصدر نفسه: ۱۱۱).

وعندما ابتعد عن مصر للمشاركة في حرب جزيرة كريت سنة ۱۸۶۵م وتشوَّق إلى مصر تشوُّق الملهوف إلى لقاء مصر قال:

بلدٌ خلعتُ بها عــذارَ شبيبتــي ... و طرحتُ في يُمنى الغَــرامِ عِناني
فَصَعِيدها أحوَى النباتِ وسَرحُــها ... ألَمى الظلالِ و زهــرُها مُتداني
فارقتُهــا طلباً لِما هــو كائنٌ ... و المــرءُ طوعُ تقلُّبِ الأزمانِ
فَلَيَهنَأ الدهــرُ الغيــورُ برحلتي ... عن مصرَ ولتَهدَأ صــروفُ زماني

(البارودي، ۱۹۹۵: ۵۵۹)

وحينما نفي إلى سرنديب أنشد أشعاراً كثيرة في فراق مصر.كانت هذه الأشعار تصدر من عاطفته الجياشة وتذيب أيَّ تكلُّف وصنعة، وهو يقول:

ليتَ شعري متى أرَى روضةَ المنـــ ـــيـــل ذاتَ النخيلِ و الأعنابِ
حيثُ تجـــري السفينُ مستبقاتٍ فوقَ نهـــرٍ مثلِ اللجينِ المذابِ
قـــد أحاطت بشاطئيـــهِ قصورٌ مشرقاتٌ يَلحنَ مثـــلَ القبابِ
ذاكَ مرعى أُنسي وملعبُ لهوي و جَنَى صبوتي و مغنى صحابي
لستُ أنســـاه ما حييـــتُ و حاشا أن ترانِي لعهده غيـــرَ صابـــي

(المصدر نفسه: ۵۴)

ظلَّ البارودي طوال عمره يبحث عن الصديق الصادق والخل الوفي، وهو يطلب منه ما ليس في الإنسان من نزاهة وحبٍّ وإخاء، وكأنَّه يتوخَّى المثال في الصديق والحبيب والعلاقات الإنسانية، ولذلک هو قريب من الرومانسيين الذين ابتعدوا عن الواقع إلى المثال، فهو ثائر على الذين يستغلُّون صداقاتهم لمصالحهم الشخصية. ظلَّ البارودى حريصاً على صداقته التي كانت تربطه بأدباء مصر والوطن العربى، فلما كان مع الدولة العثمانية في حرب الروس سنة ۱۸۷۷م أرسل قصيدته الدالية إلى أستاذه وصديقه الشيخ حسين مرصفى، وقال فيها معاتباً على قلَّة مراسلاته له (موسى، ۱۹۹۹: ۱۱۳):

و من شِيَمي حبُّ الوفاء سجيَّـــةً و ما خيرُ قلب لا يـــدومُ لـــه عهدُ؟
و لكنَّ إخواناً بمصرَ ورُفقَـــــــةً نَسُونا فلا عهدٌ لديهم ولا وعـــــدُ
أحِنُّ لهم شوقاً على أنَّ دوننا مهامهَ[۱۰] تَعيَا دون أقـــربها الرُّبـــــدُ[۱۱]

(البارودي، ۱۹۹۵: ۱۳۰)

۴-۲. التجربة الذاتية في الحرب

نشأ البارودي في بيت عسكري، وهو فارس وشاعر معاً، وقد تربَّى تربية عسكرية، فدخل الكلية الحربية وتخرَّج فيها، ثمَّ تقلَّب في مناصب عسكرية وسياسية مختلفة أدَّت به أخيراً إلى النفي بعد الثورة العرابية التى خاض غمارها (موسى، ۱۹۹۹: ۱۲۰).

سافر البارودي مع الجند المصري إلى جزيرةكريت سنة (۱۸۶۵) حين خرج سكَّانها عن طاعة الدولة العثمانية، وكان البارودي أحد ضباط الكتيبة المصرية الكبار في هذه الحرب، وقد تقدَّم الفرسان حين رست السفينة إلى شاطىء الجزيرة، وأخذ يشجِّع الفرسان على النزال والطعان. وقد وصف الشاعر المعركة التي دارت رحاها هناک وصفاً حيَّاً (المصدر نفسه: ۵۴)، فقال:

أخـــــذَ الكـــرى بمعاقـــدِ الأجفان ... و هَفَا السُّرى بأعِنَّةِ الفُـــرسانِ
و الليلُ منشـــورُ الـــذوائبِ ضاربٌ ... فوق المتالـــعِ والـــرُّبا بِجِـــرانِ
لا تستبيـــنُ العيـــنُ فـــي ظلمائه ... إلا اشتعـــــالَ أسنـــة المُـــــــرّان
تستنُّ عاديـــةٌ ويصهـــلُ أجردٌ ... و تصيـــحُ أحـــراس ويهتفُ عانـــي
و الخيلُ واقفـــةٌ علـــى أرسانها ... لطرادِ يـــومِ كـــريهـــةٍ و رهانِ
وضعوا السلاحَ إلى الصباحِ وأقبلوا ... يتكلمـــونَ بألســـنِ النيـــــــرانِ
حتى إذا ما الصبح أسفر وارتمت ... عيناي بيـــن ربًا و بيـــن مَحاني[۱۲]
فـــــــإذا الجبـــالُ أسنةٌ وإذا الوِهَا ... دُ أعنـــةٌ و المـــاءُ أحمـــــرُ قانـــي

(البارودي، ۱۹۹۵: ۵۵۷)

و لا ينسى البارودي نفسه في هذه الحرب، فهو فارس صنديد صبور على المكاره والشدائد، وقد لَخَّصَ تجربته في حرب كريت بمقطوعة لا يزيد عدد أبياتها على أربعة:

و لَّما تداعـــى القومُ واشتبک القَنا ... و دارت كما تَهوَى على قُطبها الحربُ
و زُيِّنَ للناس الفـــرارُ من الرَّدى ... و ماجت صدورُ الخيل والتهبَ الضَّربُ
و دارت بنا الأرضُ الفضاءُ كأننا ... سُقينا بـــكأسٍ لايُفيـــــــقُ لها شربُ
صبرتُ لها حتَّـــــى تجلَّت سماؤُها ... و إنّي صبـــورٌ إن ألَمَّ بـــــيَ الخَطبُ

(المصدر نفسه: ۶۳)

و لما أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية سنة (۱۸۷۷) استنجدت تركيا بمصر، فأنجدتها بحملة كان البارودي أحد قوادها. وكان البارودي قد أبدى شجاعة متميزة في هذه الحرب، فأنعم عليه السلطان برتبة أمير اللواء. وصف البارودي هذه الحرب وبطولته فيها بثلاث قصائد في ديوانه، وهي ذات موضوعات مختلفة، أهمها الحنين إلى مصر واشتياقه إلى الوطن والحبيبة، ووصفه للملاحم التي جرت في تلك الأصقاع البعيدة وموضوعات أخرى، ففي حائيته يتوقف- بعد حنينه إلى الديار- عند وصف تلك البلاد:

لعمري لقـــد طال النوَى و تقاذفت ... مَهامهُ دونَ المُلتقَى و مَطاوحُ[۱۳]
و أصبحتُ في أرض يَحارُ[۱۴] بها القَطا ... و تَرهَبُها الجِنَّانُ و هي سَوارح[۱۵]
فلا جَوَّ إلا سَمْهَـــرِيٌّ و قاضب ... و لا أرض إلا شَمَّرِيٌّ و سابـــح
ترانا بها كالأُســـد نَرصُدُ غـــارةً ... يطير بها فَتـــقٌ مـــن الصبح لامح

فلستَ تــرى إلا كُماةً بَـــواسلا و جُردا تَخوضُ الموتَ وهي ضَوابح[۱۶]
نُغيرُ على الأبــطال والصبحُ باســمٌ و نأوي إلى الأدغال[۱۷] والليل جانح

(المصدر نفسه: ۹۵)

۴-۳. الدعوة إلى العلم

عاش البارودي في عصر الدعوة إلى العلم والإقبال عليه. والجديد في هذا الأمر أن للبارودي قصيدة ميمية قالها في صباه يدعو فيها إلى العلم، ويبيِّن فيها أن العلم قوَّة، وأن قوة الأوليين في علومهم، وآثارهم علامات على علومهم، وهو يفاضل بين العالم والجاهل إلى غير ذلك. والمهم في الأمر أن هذا الموضوع قد تناوله الشعراء من بعده. وقد تناول البارودي في هذه القصيدة الأفكار التي تنوولت من بعده، وأهمُّها المفاضلة بين صاحب العلم وصاحب المال، ففضَّل الأول منهما:

ولاتَظُنُّوا نَمَاءَ المــال وانتسبُـــوا فالعلمُ أفضلُ ما يحويه ذو نَسَمِ[۱۸]
فَــرُبَّ ذي ثروةٍ بالجهــل مُحتقَــرٍ و رُبَّ ذي خَلَّة[۱۹] بالعلــمِ مُحتــرَمِ

(المصدر نفسه: ۴۵۹)

وهو يدعو إلى بناء المدارس، ويشبهها بالأشجار المتنوعة الثمار والألوان والفوائد، فهي تجعل الصبيَّ ذا منطق سليم، وكأنه الكهل المجرب، وهي التي تُخرج بين صفوفها الشعراء والأدباء ورجال الحقوق والمهندسين والأطباء وسواهم:

بقوةِ العلمِ تقــوَى شــوكةُ الأممِ فالحكمُ في الدهر منسوبٌ إلى القلمِ
لو أنصفَ الناسُ كــانَ الفضلُ بينهم بقطرةٍ مــن مـــــدادٍ لا بسفكِ دمِ
فاعكُف على العلمِ تبلغ شأوَ منزلةٍ في الفضل محفوفةٍ بالعزِّ و الكرمِ
شِيدُوا المدارسَ فهي الغرسُ ان بَسَقَت أفنانُه اثمــرت غضًّاً مــــــن النعمِ
مَغنَى علــوم تَــــرى الأبناءَ عاكفةً على الدروس به كالطير في الحرمِ
من كلِّ كهلِ الحجا[۲۰] في سنِّ عاشرة يكادُ منطقُه ينهـــــــلُّ بالحكــمِ
كأنَّها فلــكٌ لاحت بــــــه شُهُبٌ تُغني برونقــها مِن أنجـــم الظُّلمِ
يَجنُون من كلِّ علمٍ زهرةً عَبَقَت بنفحة تبعثُ الأرواح فـــي الرممِ

(المصدر نفسه: ۴۵۷ و ۴۵۹)

٥. وجهة نظر الأدباء حول البارودي

يتهم بعض النقاد البارودیَ بأن أشعاره في الوصف والغزل والحكمة لا تصدر عن خبرته الذاتية الحية، بل هي رنين الألفاظ كما وعته أذنه مما قرأ للأقدمين. فأدونيس يتهم شاعرية البارودي بابتعاده عن العصر والمعاصرة. وبالنسبة لهذا الاتهام فتكفينا العودة إلى ديوان البارودي مؤونة الرد، فهل وصفه للحرب التي خاضها في كريت والبلقان بعيدٌ عن العصر والمعاصرة في منظور أدونيس؟ وهل شعره في الحنين، وهو في سرنديب بعيداً عن أسرته وأهله وأصدقائه ووطنه بعيد عن العصر والمعاصرة؟ (موسى، ١٩٩٩: ١٠٠).

وقد استهل محمد حسين هيكل مقدمته لديوان البارودي بقوله: «شعر البارودي حياته. فكلُّ قصيدة في ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم، والديوان في مجمله صورة العصر الذي عاش فيه، وللبيئة التي أحاطت به، وللنهضة المتوثبة في الحياة حوله، وللثورة التي تمخَّضت عنها تلك النهضة، وللنكسة التي أصابت النهضة والثورة كلتيهما، والتي نقلت الشاعر من وطنه إلى منفاه ليقيم به سبعة عشر عاماً وبعض عام، يستأثر بها الشعر جميعاً (البارودي، د.ت: ٥).

و يقارن العقاد بين شعره وشعر الذين سبقوه بقوله: البارودي كان إمام المدرسة الشعرية التي خلفت مدرسة العروضيين، ونعني بالعروضيين أولئك الذين كانوا ينظمون القصائد ويخوضون في الشعر؛ لأنهم كانوا يعتبرون النظم حقاً أو واجباً على كل من تعلَّم العروض ودرس البيان والبديع وما إليهما من أصول الصناعة (المعوش، ١٩٩٩: ٥٢٥).

يقول خليل مطران في شعر البارودي: «إنه لشاعر، وناهيك به من شاعر، لا أبالغ فيه أنه نسيج وحده، ونادرة الزمان. على أنَّ أحسن ما في شعره الصياغة، سما إلى منتهى الإجادة، وبرز على المتقدمين فضلاً عن المتأخرين» (موسى، ١٩٩٩: ٥٦).

و حسب البارودي فخراً أنه أحيا الشعر بعد مواته على غير مثال سبق من معاصريه، ونقول مع هيكل: إنه كان مجدداً في كلِّ بيت من أبياته حتى في معارضاته للقدماء والنهج على منهجهم (الدسوقي، ١٩٧٥: ٣٠٠).

> «مع ذلك يبقى البارودي حلقة مهمة في تاريخ الشعر العربي الحديث، إنه بهذه العودة إلى القدامى قد وصل الأجيال التي تلت بمنابع الشعر العربي الأصيلة في عصر افتقد النماذج الإبداعية. هكذا أرسى القاعدة التي هيأت للذين جاؤوا بعده، أن يتزودوا بذلك الموروث وينطلقوا بدءاً منه في مغمرة التجديد والإبداع» (سعيد، ١٩٧٩: ٢٧).

يقول عزالدين إسماعيل: «وبنهضة الشعر مرة أخرى على أيدي البارودي وصبري وشوقي وحافظ، والوصول به إلى مستوى أروع من نماذجه القديمة، تهيأ الجو الحقيقي لكل من شاء التطوير» (إسماعيل، ۱۹۸۸: ۴۵).

و أخيراً نختم المقال بكلام أحمد حسن الزيات الذي يقول: «إن كان لامرئ القيس فضل في تمهيد الشعر وتقصيده، ولبشار في ترقيته وتجويده، فللبارودي في إحيائه وتجديده. كان الشعر في عهده صورة مشوهة من آثار القرون الأخيرة المظلمة، نظم مرتبك، وتكلف باد، وصناعة فاشية، ومعنى سقيم، فجلاه في خاطره، وصقله على لسانه، فجاء منضد اللفظ نقيَّ المستشف» (الزيات، ۱۹۸۵: ۴۹۳).

٦. النتيجة

قام سامي البارودي بإحياء الشعر العربي في الزمان الذي شاعت الصنائع اللفظية والأغراض التافهة، أضف إلى ذلك أن بعض الشعراء عزموا على أن يستخدموا الألفاظ الدارجة في أشعارهم، لذلك كان الشعر في أشد الحاجة إلى شاعر عبقري يهدي الشعراء إلى الطريق الصحيح، وها هو البارودي الذي نجّى الشعر من الآفات، وأرجع مجده السابق إليه.

قلّد البارودي فحول الشعراء القدماء ولاسيما العباسيين، وحذا حذو كبارهم، وبالاتباع من القدماء بلغ درجة خلت فيها أشعاره من الألفاظ السخيفة والأساليب الضعيفة. ومعظم شعره قوي، ونظمه عال، وقوافيه وأوزانه مستحكمة. ويمكن القول إن تقليده كان لغرض مفيد ألا وهو إنقاذ الشعر من الآفات التي أحاطت به. والجدير بالذكر أن تقليده لم يكن تقليداً صرفاً، ولم تفن شخصيته فيهم؛ إنه كان ذا شخصية قوية، يرسم حوادث عصره ووقائعه. وبتقليده علّم معاصريه كيف يتجهون إلى الأدب العربي في أزهى عصوره، ويتزودون من ذخائره دون أن تفنى شخصياتهم، فهو بعمله هذا منع الشعر من السقوط الحتمي.

وأما بالنسبة إلى الأغراض الشعرية فيجب أن نقول: إن البارودي هو شاعر الفخر والحماسة في الدرجة الأولى، حيث نرى في معظم قصائده أبياتاً حول هذين الغرضين. ويعتبر الوصف والشعر السياسي من الأغراض التي احتلت حيزا كبيرا من ديوانه. وبالنسبة إلى المدح والهجاء يمكن القول: إنه لم يكن مداحاً ولا هجاء، ولم يقبل على التكسب بالمدح، والقصائد التي قالها في مدح حكام زمانه قليلة، ولم يجعل ملكته الشعرية في خدمة الحكام أبداً. والجدير

بالذكر أن الشاعر نظم قصيدتين في مدح الرسول الأعظم(ص) وتشمل إحداهما ٤٤٧ بيتاً، وأنشدت في معارضة بردة البوصيري. وله قصيدة في مدح علي(ع) .

يقول الأدباء والنقاد: إن العمل المهم الذى قام به البارودي هو الرجوع إلى شعر العصر العباسي فى أزهى عصوره وبعثه من جديد. إضافة إلى ذلك إن للبارودي تجديداً في مجال الشعر السياسي والوطني والوصف والهجاء الاجتماعي والدعوة إلى العلم، وهو الذي رسم في أشعاره آمال شعبه وميولهم إلى الحرية والعدالة والمساواة. وبالنسبة إلى الوصف فقد خصَّص الشاعر قصائد كاملة بهذا الموضوع. وفي الهجاء الاجتماعي عبَّر عن عيوب المجتمع بصورة حيَّة، ودعا الناس إلى إصلاحها، لذلک هو رائد نهضة الشعر العربي على حسب اعتقاد مؤرخي الأدب.

الهوامش

١. الرعان: ج الرعن: انف الجبل الشاخص البارز، و المقصود من العقيق وطن الشاعر.
٢. خلاء: خالية. الأهاضيب: دفعات الأمطار المتتابعة.
٣. مفرده الرامسة: الرياح التى تغطي آثار الديار بما تثير
٤. القاطل: القاطع
٥. الرقط: ضرب من الحيات.
٦. التيه: التكبر.
٧. الجاهل الغمر: الجاهل الذي لم يجرب الأمور.
٨. بذَّ: غلب وسبق.
٩. الجياد:مفرده جواد: الفرس السريع.
١٠. المهامه: جمع مهمه، وهو المفازة البعيدة الأطراف.
١١. الربد: النعام.
١٢. المحابي:جمع المحناة :منعطف الوادى.
١٣. المطاوح: المهالک.
١٤. يحار: يضل
١٥. يراد بالسوارح هنا : السائرة المطلقة.
١٦. الضوابح: جمع ضابح وضبح الخيل: صوت أنفاسها عند العدو.
١٧. الأدغال : جمع دغل: وهو الشجر الكثيف الملتف.
١٨. ذو نسم: الإنسان.

۱۹. ذو خلة: الفقير المحتاج.

۲۰. الحجا: العقل

المصادر

اسماعيل، عزالدين، *الشعر العربي المعاصر*، بيروت، دار العودة، الطبعة الخامسة، ۱۹۸۸.

البارودي، محمود السامي، *الديوان*، شرح علي عبد المقصود، بيروت، دار الجيل، ۱۹۹۵.

بدوي، مصطفى، *گزيده شعر معاصر عرب*، ترجمه غلامحسين يوسفي و يوسف بكار، تهران، اسپرک، ۱۳۶۹ش.

البستاني، بطرس، أدبا العرب، بيروت، دارالجيل، ۱۹۹۷.

البستاني، فؤاد أفرام، *المجاني الحديثة*، بيروت، دارالمشرق،، د.ت.

بشار بن برد، *الديوان*، بيروت، دار المعارف، ۱۹۸۳.

حسين، طه، *المجموعة الكاملة*، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ۱۹۸۱.

ـــــــــــ ، *التقليد والتجديد*، بيروت، دار العلم للملايين، ۱۹۷۸.

الخفاجي، محمد عبد المنعم، *الأدب العربي الحديث*، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ۱۹۸۵.

ـــــــــــ ، *دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه*، بيروت، دار الجيل، ۱۹۹۲.

ـــــــــــ ، *قصة الأدب في مصر*، بيروت، دار الجيل، ۱۹۶۵.

الدسوقي، عمر، *في الأدب الحديث*، لبنان، دار الفكر العربي، الطبعة الثامنة، ۱۹۷۵.

سعيد، خالدة، *حركية الإبداع*، بيروت، دار العودة، ۱۹۷۹.

سموأل بن عاديا، *الديوان*، بيروت، دار الجيل، ۱۹۹۶.

ضيف، شوقي، *الأدب العربي المعاصر*، مصر، دار المعارف، الطبعة الثامنة، د.ت.

ـــــــــــ ، *البارودي رائد الشعر الحديث*، مصر، دار المعارف، الطبعة الثانية، ۱۹۶۱.

الفاخوري، حنا، *تاريخ الأدب العربي*، تهران، توس، ۱۳۷۷ش.

المتنبي، أبو الطيب أحمد، *الديوان*، شرح أبي البقاء العكبري، بيروت، دار المعارف، د.ت.

المعوش، سالم، *الأدب العربي الحديث*،لبنان، دار المواسم، ۱۹۹۹.

موسى، خليل، *البارودي رائد النهضة الشعرية الحديثة*، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ۱۹۹۹.

ميرسليم، مصطفى، *دانشنامه جهان اسلام*، تهران، بنياد دائرة المعارف اسلامى، الطبعة الثانية، ۱۳۷۵ش.

النابغة الذبياني، أبو أمامة، *الديوان*، بيروت، دار صعب، ۱۹۸۰.